

تاريخ النشر: 2025/06/01 تاريخ القبول: 2025/05/26 تاريخ الاستلام: 2025/03/28



حوار الثقافات ونسق المتعدد في بناء الرواية

✍ سامية عليوات²
S.amiaaliouat@univ-boumerdes.dz
جامعة بومرداس/الجزائر

✉ ميلود شنوفي¹
mi.chenoufi@univ-boumerdes.dz
جامعة بومرداس / الجزائر

The dialogue of cultures and multi-format in the structure of the novel

✉ Miloud Chenoufi
mi.chenoufi@univ-boumerdes.dz
University Boumerdes - Algeria

~~Samia Aliouat~~
S.amiaaliouat@univ-boumerdes.dz
University Boumerdes - Algeria

¹ المؤلف المرسل: ميلود شنوفي

ملخص البحث

إذا كان وجود وعي متعدد تعكسه بلا ريب تعبيرات مغايرة، ومع ذلك لم تولد الرواية إلا في مجتمعات بعينها وفي زمن محدد. فكيف يمكن لنا أن نتمثل كون الخطاب الروائي لا يستغني عن حوار الثقافات، وأنّ الحوارية نفسها هي الجهاز الحصين الذي يوفّر فرصة انتظام الخطاب الروائي دون غيره من الخطابات الأخرى؟ إذا علمنا أنّ مسألة القيم بما في ذلك البعد الإيديولوجي هي أقرب إلى التحقق في هذا الواقع اعتمادا على قيم مجتمع معيّن، مقابل وجود نوع من الانفصام على مرّامي ألسنة الشخصيات التي تشكّل بدورها مجتمع الرواية، لأنّها ليست بصدد التعبير عن رؤية واحدة بقدر ما تقتن برؤى متعدّدة، متصارعة.

سنحاول الإجابة عن تلكم الإشكالية من منطلق سوسيو-نصّي يربط بين بنية المجتمعات التي أنتجت الرواية وبنية مجتمع الرواية في حدّ ذاته، على اعتبار أنّ المجتمعات المتعدّدة الثقافات واللّغات هي التي أنتجت الجنس الروائي وليس المجتمعات أحادية اللّغة والثقافة، وهكذا فإنّ هذا المقال يعالج أحد المكونات البنائية للخطاب الروائي، وهو مكّون ظلّ مسكوتا عنه في كلّ اتّجاهات تحليل الخطاب ومدارسه. إنّه نسق المعرفة المتعدّدة في مجالاتها المختلفة، مرفودة بعنصر المثاقفة عبر حضور الثقافات المختلفة في خطاب النصّ الواحد، وهما مكّونان لم تتمّ معالجهما إلّا مع ظهور النقد الحوارية.

الكلمات المفتاحية: الحوار، الثقافة، النسق، المتعدد، الرواية.

ABSTRACT:

How can we imagine that the fictional discourse does not dispense with the dialogue of cultures, and that dialogue itself is the immune system that provides the opportunity for the narrative discourse to be organized without other discourses? if we know that the issue of values, including the ideological dimension, is closer to being realized in this reality depending on the values of a specific society, in contrast to the existence of a kind of separation in the tongues' goals of the characters who in turn form the society of the novel, because they are not about expressing a single vision as much as it is associated with multiple wrestling visions. The existence of multiple consciousness is undoubtedly reflected in different expressions, and yet the novel was born only in specific societies and at a specific time.

This article elaborates on the birth of the modern novel on the basis of culture and the multilingual social structure in the societies that produced the novel.

Keywords: dialogue, culture, format, multiple, novel.

1. مقدمة:

يندرج الحديث عن حوار الثقافات و"المتعدد" في سياق التأصيل لمسألة ميلاد الجنس الروائي عموماً وبدقة أكبر، هو أحد جذور الصنف الروائي الحواري، وقد تجلّى ذلك للفيلسوف الروسي "ميخائيل باختين" من قراءة تاريخ الرواية، حيث يفرّق بين الرواية والظروف التي ولدت فيها والشروط الموضوعية التي نتجت في كنفها، فهو يرى أنّ التاريخ كلّ يدرك بالمرّة كما يبدو، ولكنّه في الأصل أحداث أساسية وأخرى هامشية. فكيف يمكن لنا أن نتمثّل كون الخطاب الروائي لا يستغني عن حوار الثقافات، وأنّ الحوارية نفسها هي الجهاز الحصين الذي يوفّر فرصة انتظام الخطاب الروائي دون غيره من الخطابات الأخرى؟ إذا علمنا أنّ مسألة القيم بما في ذلك البعد الإيديولوجي هي أقرب إلى التحقق في هذا الواقع اعتماداً على قيم مجتمع معيّن، مقابل وجود نوع من الانفصام على مرّامي السنة الشخصيات التي تشكّل بدورها مجتمع الرواية، لأنّها ليست بصدد التعبير عن رؤية واحدة بقدر ما تقتزن برؤى متعدّدة، متصارعة. فوجود وعي متعدّد تعكسه بلا ريب تعبيرات مغايرة، ومع ذلك لم تولد الرواية إلّا في مجتمعات بعينها وفي زمن محدّد.

وكيف يظهر التاريخ الأساسي ويتجلّى باتكائه على التاريخ الهامشي، ما الفرق بين الزمن المنطقي والزمن التاريخي؟

2- تاريخ الرواية بين الرسمي والهامشي:

يستهدف هذا المسعى إبراز أنّ الرواية لا تسير التاريخ العام في مرحلة معيّنة منه فحسب بل إنّ لها، بدورها، تاريخها الخاص الذي يسير التاريخ العام أحياناً ويسبقه في أحيان أخرى، ووصل من هذا إلى إقامة علاقة بين زمن ولادة الرواية ومختلف الأزمنة التي تشكّلت عبرها العناصر الروائية.

إنّ تاريخ الرواية يتعرّف بالجمع بين الأساسي والهامشي وليس بأحدهما فقط، وهذا ما مكّن "باختين" من أن يقرأ الرواية في سجل عريض، يعطف "فرانسوا رابليه" على "سقراط"، والرواية الأوروبية المتأخّرة على الرواية اليونانية، ويستنتج أنّ ما وصلت إليه رواية "الباروك" كان نتيجة لما مارسته الرواية اليونانية من تأثير وصل مداه إلى الرواية الأوروبية الحديثة، ما يشير إلى توالد الشكل الروائي من بعضه بفعل الشروط التي يخضع لها في مرحلة ما من حياته، لكنّه يؤكّد أنّ الرواية هي «الجنس الأكثر شباباً بين الأجناس الأدبية.» (Mikhaïl, 2004, p. 441)

ويبدو الأمر سويّاً ما دامت الرواية كما يرى غير منقطعة عن مقدّماتها التاريخية، وما دام القول الروائي غير منحصر في زمن بعينه «كان للكلمة الروائية تاريخ سابق طويل يضرب في عمق مئات السنين وآلافها، فقد تشكّلت هذه الكلمة ونضجت في أشكال الكلام الأليف للغة الشعبية المحكية، وكذلك في بعض

الأجناس الفولكلورية والأدبية الوضيعة، وكانت الكلمة الروائية خلال نشوئها وتطورها المبكر تعكس الصراع القديم، فقد كانت تتطور دائماً، في الواقع، على تخوم الثقافات واللغات. إن تاريخ الكلمة الروائية شائق جداً ولا يخلو من درامية.» (ميخائيل، 1988، صفحة 243)

لم تنشأ الرواية بهذا المعنى، نصاً واحداً مكتملاً، بل كانت مؤزعة زمانياً عبر أزمنة مختلفة وبعيدة، وشكلياً على نصوص كثيرة ومختلفة الأزمنة دون أن تكتمل، ولا ينسى باختين في خضم ذلك مبدأه الأساس وهو الحوار، بل يعزّزه بما تفضي إليه دراسة التفاعل اللفظي الذي هو أساس الرواية، ودراسة أشكال التفاعل المختلفة عبر الأزمنة المختلفة التي شكّلت أساس الكلمة الروائية، لذلك فهو يقرأ تاريخ الكلمة الروائية ليس في حالات السلم والتبادل الثقافي المتكافئ فقط، بل حتى في صراع الشعوب والثقافات واللغات، الأمر الذي يجعل دراسة الكلمة الروائية ممكنة، بل واجبة في كل مكان عليه بشر لا يؤمنون بالمطلق واليقيني، وتهتزّ فيه الأحادية الثقافية واللغوية، ومن هذا الخضم تصدر إحدى أكثر أطروحاته أهميّة، يقول: «الرواية أثر لنقد لغات متعدّدة للغة واحدة مسيطرة.» (Mikhaïl , 2004, p. 17) وقد تجلّى هذا النقد بالشكل الذي رآه أكثر في عصر النهضة الأوروبية الذي شهد قيام اللغات القومية في الجزء الغربي من أوروبا منسلخة عن أصلها: اللغة اللاتينية المسيطرة قبل ذلك عمّا سواها.

يرسم البحث في تاريخ الكلمة الروائية، وعن تاريخها، حركة مستمرة في الزمن «إنّ الشيء النهائي لم يوجد في العالم بعد، وكلمة العالم الأخيرة، كما الكلمة الأخيرة عن العالم لم تقل بعد، ذلك أنّ العالم مفتوح وحرّ، فكلّ شيء قادم وسيظل قادماً أبداً.» (Mikhaïl , La Poétique de Dostoïevski, 1998, p. 234)، لذلك ليس ضرورياً رصد الرواية في تتابع زمني لا يغفل لحظة ما دامت هذه اللحظة لم تكن فارقة في تاريخ الكلمة أو تاريخ الرواية، بل إنّ ما يجب فعله هو تأمل هذا التاريخ في أزمنة متغيرة، يمكن إجلالها في نقاط ثلاث يخرقها الحوار جميعاً:

- تفاعل اللغات وانفتاح الثقافات على بعضها.

- الضحك الشعبي.

- تعدّد المعارف في زمن تاريخي لا مراتب فيه.

وهي برأيه مقولات ذوات أزمنة متغيرة وهي مختصرة إلى الحدّ الذي يمكن من دراستها ليس في سياق تتابع لحظي للأزمنة التاريخية، وإنّما في سياق ما مارسته من تأثير على الرواية في زمن ما، لذلك فهو يقرّر بشأن الروايات الأوروبية أنّها أثر لنقد لغات القومية الحديثة للغة اللاتينية المسيطرة، بقدر ما هي مرآة لتفاعل هذه اللغات الحديثة، وتفاعل الثقافات الملازمة لها، وتكون الرواية في الحالين محصّلة لوعي يشمل اللغة والثقافة والنظر إلى العالم (Mikhaïl , Bakhtine, 2004, p. 17) (ميخائيل، 1988، صفحة 243) ذلك أنّ مفهوم التعدّد عنده، شكل من أشكال التحرّر وطريق إليه، وجوده مرتبط بحجم هامش الحرية المتوقّرة

المتنامية شيئاً فشيئاً إلى أن تتمكّن من كسر غلاف الأحادية المتكسّ وشقّه، وليس أكثر من هذه الروابط قدرة على إبراز هذا التعدّد الحرّ، فالتعدّد اللّغوي وحده الذي يحزّر الوعي تحريراً كاملاً من سلطة لغته والأسطورة اللّغوية.

والحقيقة أنّ الرجل يذهب إلى أبعد من ذلك في إدراك اللّغة الخاصّة ووعيمها حين يجعله مرتبطاً بالالتقاء بلغة أخرى، ذلك أنّ « معرفة اللّغة بتفكير آخر هي وحدها التي تؤدي إلى فهمك لغتك الخاصة الفهم المناسب. » (ميخائيل، 1988، صفحة 258) لذلك فهو حين يشرح طريقة تكوّن الأدب الروماني والدلالة الحاقّة به يركز على هذه النقطة بالذات معتبراً الأدب الروماني نتيجة وعي ثنائي للّغة بخلاف الأجناس اللاتينية القومية الخالصة التي ولدت في كنف أحادية اللّغة، لذلك فهي لم تأخذ شكلاً أدبياً كاملاً، وهو يشرح هذه المسألة في أكثر من موضع في "الكلمة في الرواية" كأن يقول: « لقد أبدع وعي الرومان الأدبي الإبداعي من البداية حتى النهاية على خلفية اللّغة اليونانية والأشكال اليونانية. » (ميخائيل، 1988، صفحة 258) ويقول: « لقد نشأت اللّغة اللاتينية الأدبية في كل أنواع أجناسها على ضوء اللّغة اليونانية القديمة. » (ميخائيل، 1988، صفحة 258) ويلاحظ أنّ « بدايات الأدب الروماني كانت تتّصف بالثلاثية اللغوية "ثلاث نفوس" كانت تعيش في صدر "إينوس"، إنّما أيضاً ثلاث نفوس - ثلاث لغات - ثقافات كانت تعيش في صدور كلّ رواد الكلمة الأدبية الرومانية تقريباً، كلّ هؤلاء المترجمين الأسلوبيين الذين قدموا إلى روما من إيطاليا الجنوبية، حيث كانت تتقاطع حدود ثلاث لغات وثقافات: اليونانية والأوسكية والرومانية، كانت إيطاليا الجنوبية مهد ثقافة خاصة، مختلطة، هجينة، وأشكال أدبية مختلطة. » (ميخائيل، 1988، الصفحات 259-260)

3- حوار الثقافات جذرا للرواية:

تنتج الكلمة الأدبية بفعل انفتاح الثقافات على بعضها: هذا هو المبدأ الذي أقام عليه الفيلسوف والناقد الروسي الذي سحره التهجين اللّغوي وأبهرتة قدرة "دوستوفسكي" على تمثّله قبل أن يكتشف في "فرانسوا رابليه" صورة نموذجية لتمثيل الثقافة الشعبية واحتفالات الكرنفال لخاصية الاختلاف والتعدّد في الرواية بما فيها من انفتاح وتفاعل وحوار.

لقد نقل باختين أدواته وأفكاره من نظريته في الكلمة وفي اللّغة الحوارية إلى نظرية الرواية فظهرت له الرواية في صميمها صورة عن اللّغة، وبما أنّ اللّغة عنده حوار لا ينقطع أو على الأقل صورة لحوار لا ينقطع، فإنّ ما تفعله الرواية هو تجسيد هذا الحوار، فالمبدأ الحوارية هو ركيزة الرواية وأساسها: « إنّ تطوّر الرواية يقوم على تعميق الحوارية وتوسيعها وإحكامها، وبذلك يتقلّص عدد العناصر المحايدة الصلبة التي لا تدرج في الحوار، فيتغلغل الحوار بالتالي إلى أعماق الجزئيات وأخيراً إلى أعماق الذرّات في الرواية. » (ميخائيل، 1988، صفحة 61)

الرواية بهذا المعنى حوار تنشأ فيه العلاقات المختلفة بين المتحاورين، ما يجمع بين هذه العلاقات هو الشكّ باليقين، بل رفضه، ورفض ما يوحي به، لذلك فهي حسب ما يذهب إليه باختين كلام إنسان، أو كلام إنسان عن إنسان لا يسأل عن اليقين ولا يودّ التعرّف عليه بحكم ارتباط دلالتة باللاهوت. يقول في "وظائف النصّاب والمهرج والغبي في الرواية": «النصّاب والمهرج والغبي ينشئون حول أنفسهم عوالم صغيرة خاصة.. ويتّصفون بميزة خاصة وحقّ خاص، وهو أن يكونوا غرباء في هذا العالم لا يتضامنون مع أي من الأوضاع الحياتية القائمة في هذا العالم، ولا يناسبهم أي منها، فهم لا يرون باطن كلّ وضع وكذبه فقط.. المهم بالنسبة إلينا هو تلك الوظائف الخاصة التي تؤدّيها هذه الشخصيات في الأدب بعد القرون الوسطى والتي تؤثر تأثيراً جوهرياً في تطوّر الرواية الأوروبية.» (Mikhaïl, Bakhtine, 2004, p. 305)

يأخذ الصراع، التفاعل، الحوار، الانفتاح، الإنارة المتبادلة، المعنى نفسه تقريباً عند باختين، يجمعها أحياناً فيما يسميه "التعدد الثقافي" الذي يجعله شرطاً لكلّ جنس أدبي متعدد الأصوات، لذلك فقد رأى في الرواية اليونانية "موسوعة أجناس" واستنتج سبب موت الملحمة من أحاديثها الصوتية، إذ المتكلم الوحيد فيها هو المؤلف الذي يضع كلماته على لسان من يشاء من شخوصه.

أجلى "باختين" أثر الحوار السقراطي والهجائية المينيبيية خصوصاً على الأصناف الأدبية عبر العصور، وهو يرى أنّ لهما «أهمية حاسمة في صياغة هذا الصنف الخاص بتطوّر الرواية والنثر الفني الحواري.» (ميخائيل، شعريّة دوستوفسكي، 1986، صفحة 159) كما رأى أنّ الحوار السقراطي نفسه قد ارتكز في حركة تطوّره على أساس كرنفالي وسمه بحرية إبداعية خلّصته من القيد التاريخي الذي كان يشدّه إلى الذكريات المتّصلة بالمناقشات التي أجراها سقراط والمثقلة بالسرد، لكنّه فقد صلته «بالموقف الكرنفالي من العالم واستحال إلى شكل بسيط لعرض الحقيقة المكتشفة والجاهزة.» (ميخائيل، شعريّة دوستوفسكي، 1986، صفحة 160) وذلك لما تحوّل إلى خدمة العقائد والفلسفات والتعاليم الدينية بفعل خرق الاتجاه المضموني للحوار شكل الحوار السقراطي الذي ظلّ لمُدّة محافظاً على طبيعته الحوارية الحقيقية التي تتعارض مع الحوار الرسمي الذي يصير على امتلاك الحقيقة الجاهزة.

ورأى أنّ الأدب الحديث قد استوعب الخصائص النوعية للحوار السقراطي والهجائية المينيبيية بأشكال متعدّدة "ففولتير" كتب القصة الفلسفية، و"هوفمان" كتب الحكاية الفلسفية الرومنتيكية وهما برأي "باختين" تتّصفان بالملاح العامة للمينيبيية، التي تجسّدت بصفة أجلى وأثرى في أعمال دوستوفسكي السردية (ميخائيل، شعريّة دوستوفسكي، 1986، صفحة 201) لذلك فهو يؤكّد في أكثر من موضع في (شعريّة دوستوفسكي) أنّ المينيبيية «تغلغل في جميع الأعمال الأدبية الكثيرة لدوستوفسكي، خاصة في رواياته الناضجة الخمس، فضلاً عن أنّها تغلغل في أكثر لحظات هذه الرواية أهمية فهي التي تحدّد نغمة كلّ إبداع دوستوفسكي.» (ميخائيل، شعريّة دوستوفسكي، 1986، صفحة 202) وهذه مقدّمات لنقض رأي شائع يلجّ على انحدار الرواية من جنس نقي واحد هو الملحمة، وهو إذ

رُكِّز على بعض الأجناس الهاشمية وبيّن أهميتها، إنّما ليؤكد على أهمية الأدب الشعبي الكرنفالي في تأصيل الرواية الأوروبية، ما سمح له بفهم الرواية بوصفها جنساً هجيناً.

يرفد باختين كلّ هذا بعنصر جديد يبدو أنّه لا يقع خارج دائرة الحوار، وهو "التعدّد"، فالرواية حسب جنس معرفي، مكوّناته موجودة في أجناس معرفية تقع خارجه، وهي حين تجمعها في جنس واحد لا تفصل القديم عن الجديد من المعارف والأزمنة. وهو يرى أنّ ذلك من خصوصيات الزمن الراهن والأجناس الجديدة القادرة على مزج القديم والجديد في شكل واحد، تماماً كما هي قادرة على الحديث عن أكثر من طبقة اجتماعية في عمل واحد، وقد كان من دواعي احتفائه بـ "شليغل" أنّه وجد فيه سنداً له في إثبات صفة التعدّد في الرواية، ومع معرفته بتعددية الجنس الروائي منذ ميلاده الأوّل، إلّا أنّه يصرّ على أنّ التعدّد خاصيّة الأزمنة الحديثة وأهم إنجازاتها، لذلك يكيّل لها المدائح بسخاء كأن يقول: « فبدلاً من العالم اللّغوي البطليموسي الموحد، المفرد المغلق، ظهر كون غاليلي مصنوع من تعددية الألسنة تتبادل فيه الألسنة إنعاش بعضها بعضاً وبعث الحيوية فيما بينها. » (Mikhaïl , Bakhtine, 2004, p. 422)

ويقول موضحاً فضل التعدّد فيما وصلت إليه العلوم والمعارف الإنسانية إلى الدرجة التي أصبح معها، فيها، خاصية من خواص الأزمنة الحديثة: « إنّ الوعي اللّغوي الغاليلي وحده هو الذي يمكن أن يكون كافياً وملائماً لعصر الاكتشافات الفلكية والرياضية والجغرافية العظيم الذي حطّم محدودية العالم القديم وانغلاقه على ذاته، كما حطّم نهائية القيم الرياضية ووسّع حدود العالم الجغرافي القديم، وهو عصر- عهد النهضة والبروتستانتية-حطّم التمرّكز اللّفظي للعصور الوسطى. » (Mikhaïl , Bakhtine, 2004, p. 226)

الفرق واضح إذن بين القديم والجديد، ففي الوقت الذي يتقدّم فيه القديم أو يقدّم في صورة المفرد الموحد، المحدود، المغلق (وما يمكن أن ينتج عن هذه الصفات ممّا له صفاتها)، يظهر الجديد منقسماً، متعدّداً، مفتوحاً على الآخر وطيّقاً، لذلك يتحدّد كلّ منهما بصفاته التي تميّزه عن الآخر، وليس بالزمن بمعنى تتابعه الكرونولوجي الذي ينتسب إليه، لذلك يمكن أن نجد قديماً بمعنى الزمن التتابعي ولا انغلاق فيه، جديداً، والعكس يمكن أن يحدث في جديد مكتفٍ بحدوده وصامتا، ما يدخله بفعل ذلك في دائرة القديم، لذلك فالقديم والجديد مقولتان تقعان خارج حدود الزمن بالمعنى الذي يجعل هذا أسبق من ذلك في الوجود.

انطلاقاً من ثنائية الواحد والتعدّد، قارن باختين بين ما أحدثه "أنشتاين" في حقل العلوم الفيزيائية وثورة "دوستويفسكي" في حقل الرواية، ووصل إلى نتيجة مفادها أنّ التعدّد هو الذي أوصل الرجلين إلى ما وصلا إليه « إنّ المشكلات التي واجهها المؤلّف ووعيه في الرواية المتعدّدة الأصوات أكثر عمقاً وأكثر تعقيداً من تلك التي يمكن أن نجدها في الرواية الوحيدة الصوت (المونولوجية). إنّ عالم أنشتاين يمتلك وحدة أعمق وأكثر تعقيداً من عالم نيوتن، إنّها وحدة من نمط أعلى ذات نظام نوعي مختلف » (Mikhaïl ,

Esthétique de la Création Verbale, 1984, p. 406)

يتغلغل التعدّد في الرواية عبر وحداتها التأليفية الأساسية بدرجات مختلفة، هذا التعدّد هو الذي يمنح الرواية تفرّداً أسلوبياً ونزعة حوارية، إنّ « خطاب الكاتب وسارديه والأجناس التعبيرية المتخلّلة وأقوال الشخص، ما هي إلاّ الوحدات التأليفية الأساسية التي تتيح للتعدّد اللساني الدخول إلى الرواية، وكلّ واحدة من تلك الوحدات تقبل الأصداء المتعدّدة للأصوات الاجتماعية وتقبل اتصالاتها وترابطاتها المختلفة التي تكون دائماً في شكل حوار قلّ أو كثير، تلك الاتصالات والترابطات الخاصة بين الملفوظات واللغات وتلك الحركة التيمية التي تمرّ عبرها اللغات والخطابات، وتشدّرها إلى تيارات وقطرات، وصيغتها الحوارية آخر الأمر هو المظهر الذي يتّخذ التفرّد الأوّل لأسلوبية الرواية.» (ميخائيل ، الخطاب الروائي، 1987، صفحة 39)

إنّ ما يميز الرواية بهذا المعنى هو غياب الوعي السردى الموحد الذي يمكن أن يشمل وعي كلّ شخصيات الرواية، ذلك أنّ الموقف الجديد للكاتب إزاء الشخصية في الرواية المتعدّدة الأصوات يكمن في الموقف الحوارى الذي يحترم بصرامة والذي يؤكّد استقلالية الشخصية وحرّيتها الداخلية، فليست الشخصية عند الكاتب "هو" ولا "أنا" إنّما هي "أنت" تام أي "أنا" آخر غريب عنه ولكنّه عدل له. (Mikhaïl , La Poétique de Dostoïevski, 1998, p. 40)

واضح أنّنا إزاء جمالية شديدة التميّز، شرط قيامها الأساسي « أنّ ما تنهي عنه أولاً وقبل كلّ شيء هو لا تكافؤ صوتين: صوت الذات المتلفّظة "السارد" وصوت ذات الملفوظ "الشخصية" فإذا أراد الصوت الأوّل أن يسمع فإنّ عليه أن يتنكّر ويلبس قناع الصوت الثانى.» (تزفيطان ، 1999، صفحة 81) وعلى هذا النحو تكون للشخصية الروائية قوانينها، ولعلّ أكثرها صرامة أنّ للروائي أن يكون شاهداً عليها أو شريكاً لها، ولكنّه لا يكون الاثنين معاً أبداً، إذ ليس بوسع المرء أن يكون في الآن الواحد ذاتاً وآخر.

إنّ صوتي شخصيتين ينتج عنهما تعدّد الأصوات، ولكنّه يجب الاعتقاد بأنّ صوت الشخصية وصوت سارد لا يريد أن يخفي صفته ذاتاً وحيدة للتلفّظ، لا ينتج عنهما إلاّ التناشز. (تزفيطان ، 1999، صفحة 82)

لقد تبّنى باختين في "شعرية دوستويفسكي" وفي "أعمال فرانسوا رابليه" موقفاً جديداً من الرواية يخالف تصوّر الماركسي المسيطر في بداية القرن العشرين، فقد أرجع جذور الجنس الروائي إلى الحوار السقراطي والهجائية المينيبيية والكرنفال الشعبي في أواخر القرون الوسطى وبداية عصر النهضة بكلّ ما للكرنفال من دلالات التعدّد والتهكم والسخرية اللاذعة، ورأى أنّ الرواية الجيدة هي تلك التي تبرز الواقع الاجتماعى في تعدّديته وحواريته الخصبة. فالعمل الروائي الجيد برأيه هو إنصات حيّ لوقع التناقضات الاجتماعية، لذلك نظر إليه من زاوية التعدّد الاجتماعى وسعى عبره إلى تشييد منظومة شعرية أساسها الكلمة المشحونة بالتعدّد والاختلاف والتنوّع. يقول « لن نفحص اللّغة باعتبارها نسقاً من المقولات

النحوية المجردة، وإنما سنتعامل معها باعتبارها لغة إيديولوجية، وباعتبارها مفهوماً للعالم وكأنها رأي ملموس.» (Mikhail, Bakhtine, 2004, p. 95) ومع أنه تجاوز مفاهيم العلاقة والنظام عند الشكلايين، وانفتح بشكل واسع على الإيديولوجيا الخاضعة لسلطة الخطاب والعلامة اللغوية في صورة من الحوارية الخصبة التي كفلها له تزاوج التحليل الشكلائي العلمي والفكر السوسيولوجي الجدلي، ما سمح له بقراءة الرواية بوصفها فضاء لنقل كلام الآخرين ومحاورته، إلا أن كل ذلك ليس بمنأى عن نقد يثيره هذا الطرح، إذ ليس صحيحاً تماماً ودائماً أن الكلمة حامل إيديولوجي بامتياز، كما أن اللغة لم تعد نسقاً من المقولات النحوية المجردة حتى في النظريات الشكلية.

الحقيقة أن ما قاله "باختين" جديد ولا مع حين يتعلّق بنموذجه المفضل، لكنّه بمجرد أن يتجاوز أعمال "فرانسوا رابليه" و"فيودور دوستوفسكي"، يدخل فيما دخلت فيه النظريات من قبله ومن بعده، ويجد نفسه في مواجهة أسئلة كثيرة، لعلّ أهمها «صفة التعميم الكبير الذي تأخذ به، فقد بدا المبدأ الحوارى لامعا، وهو يضع رواية دوستوفسكي في مواجهة رواية تقليدية محدودة الأصوات، لكن النزوع إلى التعميم ما لبث أن أدرج هذا المبدأ في الرواية كلّها حتى غدت الرواية في ذاتها، ومهما كان موقعها وتاريخها، جنساً أدبياً حوارياً بامتياز.» (فيصل، 1999، صفحة 85) ولم تعد صفتا الحوار والتعدد تغادر الرواية.

4- خاتمة:

التعدد صفة لا تفارق الرواية. الرواية موجودة بالمتعدد، لأنّ كلمتها قديم ميلادها، تشكّلت في خضم الثقافات المتحاورة عبر الزمن، لكنّها أعادت تشكيل ذاتها في خضم اللغات المتعدّدة المتحاورة مع اللغة الوحيدة، لذلك فهي ليست ذات شخصية مجردة أو أحادية، إنّها امتداد للآخرين الذين تحاورت مع كلماتهم واعترفوا بها واعترفت بهم وأخذت عنهم وأخذوا عنها أو أخذوها وحملوها دلالاتهم، حدث ذلك عبر أزمنة مختلفة وما زال يحدث بأشكال متنوّعة لا يركّز منها باختين إلاّ على الحوار وينسى أو يتجاهل الاستعمار والإخضاع القسري.

يوهم المنجز الباختيّ حول "نظرية الرواية" بتفرّده وديمومته عبر اختلافات جوهرية مع الموروث النقدي العام، لكنّه ينتهي إلى السياق ذاته، فإذا كان الماركسيون يروّجون لمفهوم الإيديولوجيا ونظرية الانعكاس، وأكّد "لوكاتش" على مفهوم الكلية والانسجام، وقرأ "غولدمان" جمالية الرواية بواسطة حضور رؤيا للعالم متماسكة، فإنّ قراءة باختين للرواية تركز على فكرة الكلمة الحوارية بوصفها الأساس الجمالي في النثر الروائي وهي ميزته، وهو بذلك قد فتح أعين النقاد على إمكانية تحليل قوامه التعدّد والحوار والتفاعل الخصب، ولكن في صميم هذا التعدّد تكمن أحادية بئسة تقول إنّ النصّ الجيّد هو الذي يعكس مجرى التفاعلات والتناقضات الاجتماعية عبر لغته.

لذلك فإنّ ما قاله "باختين" عن خصوصيات النوع الروائي الحواري انطلاقاً من تحليل نموذج محدّد، يفقد كلّ بريقه وجدّته بمجرد أن يتجاوز أعمال "رابليه" و"دوستوفسكي" ويدخل فيما دخلت فيه النظريات من قبله ومن بعده، ويجد نفسه في مواجهة أسئلة كثيرة، لعل أهمها صفة التعميم الذي تأخذه به، فقد بدأ المبدأ الحواري لامعاً، وهو يضع روايات "رابليه" و"دوستوفسكي" في مواجهة روايات تقليدية محدودة الأصوات، لكن النزوع إلى تعميمات نظرية ما لبث أن أدرج هذا المبدأ في الرواية كلّها، حتى غدت الرواية في ذاتها ومهما كان موقعها الزماني والمكاني، جنساً أدبياً حوارياً بامتياز.

المراجع

- Mikhaïl , B. (1984). *Esthétique de la Création Verbale*. Paris: Gallimard.
- Mikhaïl , B. (1998). *La Poétique de Dostoïevski*. Paris: Ed. Seuil.
- Mikhaïl , B. (2004). *Bakhtine*. paris: Gallimard.

- باختين ميخائيل . (1986). *شعرية دوستوفسكي* (المجلد 1). المغرب: دار توبقال.
- باختين ميخائيل . (1987). *الخطاب الروائي*. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.
- باختين ميخائيل . (1988). *الكلمة في الرواية* (المجلد 1). سورية: وزارة الثقافة.
- تودوروف تزفيطان . (1999). *الشعرية* (المجلد 2). المغرب: دار توبقال.
- درّاج فيصل . (1999). *نظرية الرواية والرواية العربية* (المجلد 1). بيروت: المركز الثقافي العربي.